الى حد بعيد ، وليدة لقاح بين تجربة فياض الذاتية والقومية في ظل الاحتلال وما يدعم هذه التجربة من رواسب صورية تراثية في لاوعيه وبين تجربة فنية وفرها له ذلك الجو المسرحي في الارض المحتلة . وقد وجدت فيما قمت به من بحث حول هذا الموضوع ان توفيق فياض شاهد في فلسطين المحتلة مسرحية برازيلية بعنوان **ايدي يوريديس**(٦) قبل كتابة مسرحيته **بيت الجنون**(٧) .

وقد اهتممت هنا بالبحث عن المؤثرات التي أرجح انها وجدت صدى في نفس توفيق فياض وظهرت في **بيت الجنون** لان هذه المسرحية ، كما يبدو لي ، عمل ادبي متفرد ليس في الادب الفلسطيني فحسب بل في مجال المسرح العربي . ولا يعني تأثر فياض بمسرحية برازيلية انه « سرق » او « نسخ » او « حاكى » . بل ان صورا ادبية معينة عبر عنها بدرو بلوخ في **ايدي يوريديس** ايقظت مثيلات لها في اعماق لاوعي فياض وتجسدت عملا فنيا جديدا يحمل صورا مشابهة او معادلة للصور التي يحملها العمل الفني الاول .

من هنا يمكننا ان ننظر الى الاعمال الادبية في انحاء العالم جميعا على مر العصور ليس فقط من حيث امتدادها عموديا في الزمان بل من حيث امتدادها افقيا في المكان . لان صورا معينة تتكرر في الاعمال الادبية الكبرى في كل مكان وكل زمان فتشكل اطارا يضم في داخله الادب . واذا تساءلنا عن سبب تكرار هذه الصور وجدنا انهـا حقائق نفسية انسانية هاجعة في اللاوعي الجماعي اطلق عليها العالم النفساني كارل غوستاف يونغ اسم النماذج الاصلية . وقد وجدت هذه النماذج الاصلية تعبيرا عن ذاتهـا في صور حضارية مختلفة عند الشعوب جميعا منذ فجر التاريخ وما زالت تتكـرر في الاعمال الادبية الكبرى حتى اليوم . لذلك يهدف النقد الادبي الذي يعالج النماذج الاصلية الى كسر طوق الزمان والمكان اللذين يغلفان العمل الادبي ويحددانه ، فينطلق النقد بالعمل الادبي الى ذرى انسانية عندما يكشف ارتباطه بالحقائق المطلقة التي تختزنها النفس الانسانية .

يقول يونغ انه كما تترسب تجارب الفرد في لاوعيه الفردي تترسب التجربة الانسانية العامة في اللاوعي على مستواه الجماعي . وتظهر الرواسب الصورية الفردية في الحلم بينما تظهر الرواسب الصورية الجماعية في الاسطورة . من هنا كان حلم الفرد اسطورة الجماعة . وكلما عمق الاديب تجربته ووسع رؤياه غاص في اعماق اللاوعي واستطاع ان يبلغ الى حقيقة النفس الانسانية الكلية ويكتشف النماذج الاصلية . وتكتسب النماذج الاصلية في طريقها الى العبارة خصائص تلتقطها من المستويات المختلفة للاوعي ، وهي كما عددها يونغ : المستوى العرقي والقومي والقبلي والعائلي والفردي . فيظل العمل الادبي يحمل خصائص ذاتية محلية بالاضافة الى خصائصه الجماعية الانسانية . وهذا احد الادلة على اصالة العمل الادبي .

وقد أصبح اليوم ما يدعى بالنقد الاسطوري او النقد النموذجي الاصلي مـن أهم المناهج النقدية في العصر الحديث . ويعد الناقد الكبير المعاصر نورثروب فراي في كتابه **تشريح النقد** من أبرز مشرعي هذا المنهج . وقد عرف فراي الادب بأنه اتحاد الطقس والحلم في صيغة كلامية مستفيدا بشكل خاص من فريزر ويونغ .

لعل هذه المقدمة كانت ضرورية من حيث هي تمهيد لدراسة **بيت الجنون** . ولعلنا الآن نفهم لماذا لم تكن **بيت الجنون** تقليدا او نسخا **لايدي يوريديس** . فقد استطاع توفيق فياض ان يصهر تجربته الذاتية والقومية في التجربة الانسانية الكلية ، فكانت مسرحيته صورة لمأساة الانسان الفلسطيني في وطنه المحتل كما هي مأساة كل انسان . لذلك كان فياض اصيلا : لم يستعر تجربة غيره بل استطاع ان ينبه نماذج اصلية هاجعة في لاوعيه